تَلْخِيصُ أَسْرارِ الكَلامِ

بسم الله الرّحمن الرّحيم

وصلّى اللهُ على سيّدنا محمّدٍ النبيّ الكريم

قالَ العبدُ الفقيرُ المضطرُّ لرحمة الله المنكسرُ خاطرُهُ لقلّة العملِ والتقوى عثمانُ بنُ محمّدِ بن عثمانَ الفلانيّ نسباً، المالكيّ مذهباً، الأشعريّ اعتقاداً:

الحمدُ للهِ ربّ العالمينَ والصّلاةُ والسّلامُ على رسولِ الله صلّى اللهُ عليهِ [وآله] وسلّمَ، وبعدُ:

فهذا كتابٌ لخّصتُهُ منْ أسرارِ الكلامِ للشّيخِ الفقيهِ الإمامِ العاملِ الورعِ الزاهدِ المحقّقِ الحارثِ المحاسبيّ رحمَهُ اللهُ تعالى ونفعنا اللهُ به.

فاعلمْ يا أخي لا نجاةَ إلاّ في التمسّكِ بتقوى اللهِ العظيمِ عزّ وجلّ، وأداءِ فرائضِه والورعِ في حلالِه وحرامِه وجميعِ حُدودِه والإخلاصِ للهِ تعالى بأعمالِه، والتأسّي برسولِه عليهِ السّلامُ.

واتّفقَ أهلُ الله على أنّ سعادةَ المرءِ في الدّنيا والآخرةِ بتقوى اللهِ عزّ وجلّ، وأنّ دلالةَ التّقوى هيَ الورعُ عنْ محارمِ الله تعالى، والقيامُ بحُدودِه وتصفيةُ القُلوبِ عنْ مكارهِه. ثمّ اتّفقوا على أنّ فسادَ الدّينِ في الجُرأةِ، وأنّ دلالةَ الجُرأةِ على اللهِ عزّ وجلّ هيَ تركُ الورعِ والتعدّي بحدودِ اللهِ عزّ

وجلّ، والإصرارُ على معصيةِ الله عصَمنا اللهُ منْ ذلكَ.

بـابُ ذمِّ الدُّنيـا

يا أخي إنّ رأسَ كلِّ شرٍّ حُبُّ الـدُّنيا والتّعظيمُ والعلـوّ فيهـا؛ ولذلكَ فرّطَ العبـادُ في كثيـرٍ من حقوقِ الله تـعالى وضيّـعوا منَ الصّلاةِ والصّـومِ وسائرِ الفـرائضِ؛ منْ حُبِّ المـالِ والتّـعظيمِ. وتقلّبُـوا فـي فُنونِ الحَـرامِ والآثامِ، واستـهانُوا بكـثيرٍ مـنْ أمرِ الله ونهـيه؛ ولذلكَ بارَزُوا اللهَ بالعظائـمِ وأصرُّوا على الكبائرِ، كأنّهم ما سمعُوا قـولَهُ تعالى: ﴿من كان يريد الحياة الدنيا..... ما كانوا يعملون﴾.

يا أخي اعلم أنّ صلاحَ الأُمّةِ بصـلاحِ العُلماءِ، وفـسادُهم بفـسـادِ العُلماءِ. والعُلماءُ إذا كانوا عاملينَ برِضوانِ اللـه عزّ وجلّ مؤثرينَ للآخرةِ على الدُّنيا فأولئكَ خُلفاءُ الرُّسلِ والنُّصحاءُ للعبادِ، والدُّعاةُ إلى الله، يدعُونَ إلى سبيلِ النّجاةِ. قد سَعِدَ مَن أجابَهُمْ، وفـازَ منِ اقتدى بهم؛ قالَ تعالى: ﴿ومَن أحسن قولاً ممَّن دعا إلى الله وعمل صالحاً وقال إنني من المسلمين﴾.

بكى بعضُ أهلِ الله فـقالُوا: إن علمـاءَ السُّوءِ جلسُوا علـى طريقِ الآخرةِ فقطعُوا العبادَ عنِ الله.

يا أخي إيّاكَ وجمعَ المالِ لـلتّكاثُرِ، وعليكَ بالبُلغةِ منَ الحـلالِ، ثمَّ كُلُّهُ بنيّةِ العبادةِ، وكنْ للمـسكنةِ مُحبّـاً، ومنْ خوفِ الفقرِ آمناً، وبالله في رزقكَ واثقاً، وبمقاديرِ اللـه مسروراً، وفي البـلاءِ راضياً، وفي الرّخـاءِ شاكـراً، في الضرّاءِ صابراً، وفـي السرّاءِ حامـداً. وكنْ لله مُـتواضعـاً، وعنْ حبِّ العلوِّ والتكاثرِ حازناً، إن كنتَ مقتدياً بالصّحابةِ رضوانُ الله عليهمْ، وكانُوا إذا أقبلتِ الدُّنيا يحزنُونَ، وإذا أصـبحَ عندَ عيـالِهم شيءٌ يحزنُونَ، وإذا لمْ يكنْ عندَ عـيالِهم

شيءٌ فرحُوا. وكانوا يدَعون سبعينَ باباً منَ الحلال مخافة أن يُقَعُوا في بابٍ واحد منَ الحَرام، وكانوا يرثُونَ المالَ الحلالَ فيتركونَهُ مخافةَ أن يُفسِدَ قلوبَهُمْ، وكانُوا يبكُونَ منْ شربةٍ منَ الماء.

يا أخي لو كانَ جمعُ المال لأعمال البرّ أفضلَ منْ تركِهِ لما سبقَ أحدٌ محمّداً صلَّى اللهُ عليه [وآله] وسلَّمَ إلى هذا الفضل.

يا أخي عليكَ بالقناعة، فإنَّها الحاجزُ بينك وبينَ فتَنِ الدُّنيا، والمفتاحُ الَّذي يُفتَحُ به خيرُ الآخرة، فإنْ أنعمَ اللهُ عليكَ بالقناعة فاشكرْهُ. وأحذّرُكَ منَ البُخل؛ لأنَّ البخيلَ بعيدٌ منَ الله، وبعيدٌ من رسولِ الله، وبعيدٌ منَ الجنَّة، وقريبٌ منَ النَّار.

إيَّاكَ ومُخالطةُ النَّاس، فإنَّ جميعَ الشَّرِّ والأوزارِ مجموعٌ في مُخالطتهم ومعاشرتهم، وإنَّما يعلمُ ذلكَ أهلُ الرِّعايةِ والتفرُّدِ وأهلُ الورعِ والمُحاسبة، ولستَ ممَّنْ يَسلمُ إذا اجتمعَ شياطينُ الإنسِ والجنّ.

فعاشر يا أخي رجُلَين، أحدُهما الَّذي يُعينُكَ على البرّ والتقوى، والآخرُ الَّذي يُعينكُ في أحوالِ الدُّنيا. فإنْ جَمَعَ اللهُ ذلكَ في الرَّجُلِ الواحد فشُدَّ يديكَ عليه، وجانبْ سواهُ، لأنَّ جميعَ النَّاسِ ضررٌ في الدِّينِ إلاَّ المُعينَ على البرّ والتَّقوى.

يا أخي إذا أتاكَ عنِ اللهِ وعنْ رسولِهِ رحمةٌ فاحمَدِ اللهَ على ذلكَ، فاقبلْ رُخَصَ اللهِ عزّ وجلّ.

يا أخي لا تعدلْ بالعافيةِ في الأحوالِ كلّها بشيء. لا تتعرّضْ للبلاء فلسْنا أهلَهُ. لكنْ إنْ بُليتَ بشيءٍ منَ المكارهِ والمصائبِ؛ جاهدْ نفسَكَ على الصَّبرِ والرِّضا بالقضاء، فإنَّ ذلكَ نظرةٌ منَ اللهِ لعبده.

واتّق الشّكوى وقلّة الرّضا بالقضاء، فإنْ كنتَ لا تفرحُ بالمصيبة لما ترجوهُ منْ كفّارة الخطايا، تقولُ الملائكةُ: داويناكَ فلمْ تبرأ.

يا أخي: إنَّ الشّيطانَ يحزنُ حُزناً طويلاً عندَ الطّاعات، ولهُ مكائدُ، يُوسوسُ بحبّ الثّناء والتّعظيم والإعجاب والتّجبُّر وعلوّ الدّرجات واتّباع الهوى. ثمّ متى بُليتَ بالمدحة والتّزكية لا تقبلْ فإنّهُ ضررٌ بالدّين. ثمّ إذا سبقَ السّرورُ بالمدحة حذرتُكَ الإصرارَ على ذلكَ.

فصلٌ

يا أخي إيّاكَ والعُجبَ بأعمالكَ أنْ تستكثرَها لربّك. واعلمْ أنّ أعمالَكَ لا تقومُ بشُكر نعمة واحدة من نعم الله بلِ النّعمةُ الواحدةُ تستوعبُ جميعَ أعمال العبادة، وتلكَ الأعمالُ نعمٌ أيضاً متى تأتي بشُكرها. لو عرفتَ عظمةَ الله وذكرتَ نعَمَهُ لاستحييتَ منْ ذكرِ أعمالكَ، فاستعنْ على الإعْجاب باستحْقار أعمالكَ وبذكرِ نعمة أيادي الله لديكَ. عليكَ بالعلم بتقصيرِكَ فيما يَجبُ عليكَ، وبوجَلٍ من زوالِ النّعمِ عندَ تضييعِ الشّكرِ.

فصلٌ

يا أخي تفقّد سرائرَ الصّدرِ فطهّرْ صدرَكَ منَ الغلّ والحسَد والحقد والشّماتة وسوء الظّنّ والعداوة والبغضاء. وانظرْ هلْ تجدُ حبَّ الدّنيا والسّرورَ بإقبالها، والتقلّبَ في شهواتها. وهلْ تجدُ حلاوةَ المدحة والتّعظيم، وهل تأنفُ منَ المدحة، وهلْ تكرهُ شيئاً يخالفُ أهواءَكَ، وترضى بما وافقَ الهوى. وهل تنظرُ الخلقَ بلا اعتبار، وهل تشتغلُ بفُضول الكلام، وهل تصمتُ أحياناً مفكّراً في غير معاد، وهلْ تعملُ شيئاً يرضاهُ اللهُ وأنتَ تأنفُ من فعله، وهلْ تجدُ خوفَ النّقر أحياناً وهلْ تكرهُ شيئاً قضاهُ اللهُ فيكَ.

يا أخي جاهدْ نفسَكَ عن الانتقال عن الأخلاق المذمومة ولا تستصغرْها.

يا أخي إيَّاكَ والإصرارَ، فإنَّهُ لا خيرَ فيه بل الشرُّ مجموعٌ معَ الإصرارِ ولا شيءَ أعظمُ عندَ الله منَ الإصرارِ.

يا أخي إنَّ فنونَ العلمِ والعبادة وجميعِ ما تتقرَّبُ إلى الله عزَّ وجلَّ كثيرٌ. والعاقلُ يشتغلُ بما أوجبَ اللهُ على القلوبِ والجوارحِ، ومعرفةِ الورَعِ، والأحوالِ الظَّاهرة والباطنة والعملِ بحُسنِ النيَّة والإخلاصِ بالعملِ. ثم احذَرْ يا أخي منَ البحثِ والنَّظرِ في اختلافِ الأمَّة، لأنَّ الناسَ كانُوا إخواناً على أمرِ الله متفقينَ، فلمَّا بُلُوا بالبحثِ والتعمُّقِ صارُوا أصنافاً. وذرِ التَّعمُّقَ والبحثَ عمَّا اختلفوا فيه فإنَّه بحرٌ عميقٌ وقد غرقَ فيه ناسٌ كثيرٌ.

تمسَّكْ بما اجتمعَ عليه المُسلمونَ منَ الإيمانِ بالله وملائكته وكتبه ورسله وحدوده وفرائضه وشرائعِ دينه وجميعِ ما اجتمعَ السَّلفُ عليه ففيه الرَّشدُ والحقُّ، قالَ صلَّى اللهُ عليه [وآله] وسلَّم: «لا يجمعُ اللهُ أمتي على ضلالة» وقولُه الحقُّ، فما اجتمعوا عليه فهُو الحقُّ لاشكَّ فيه. كفانا شغلاً ما اجتمعُوا عليه منَ التَّعمُّقِ.

عاهدَ بعضُ أهلِ الله إلى إخوانه فقالَ:

بسم الله الرَّحمنِ الرَّحيم وصلَّى اللهُ على سيِّدنا محمَّد، أمَّا بعد.

فاعلموا أنَّ هذه الأهواءَ قد كثُرتْ في النَّاس، والمخرجُ منْ ذلكَ أنْ تلزَموا إنْ شاء اللهُ ما اجتمعوا عليه، وتتَّقُوا ما اختلفوا فيه فإنَّ البرَّ والفاجرَ كلَّهم مجتمعُونَ علىٰ أنَّ اللهَ هوَ صانعُ العالم، وأنَّ القرآنَ حقٌّ، وأنَّ الرُّسلَ والكُتبَ والملائكةَ والبعثَ والجنَّةَ والنَّارَ حقٌّ ليسَ بينهم اختلافٌ، وأنَّ

الصلواتَ الخمسَ بوضُوئها، والغُسلَ منَ الجنابة، وصيامَ شهرِ رمضانَ والزَّكاةَ والحجَّ وبرَّ الوالدَيْنِ وأداءَ الأمانة وكفَّ الأذى وإنصافَ النَّاسِ من نفسكَ واجبٌ على كلِّ مسلم، وأنَّ ما قالَ عزَّ وجلَّ: ﴿حُرِّمَت عليكم أمهاتكم....﴾ الآية، أي نكاحُهُنَّ حرامٌ، والخمرُ والسرقةُ حرامٌ، الغشُّ حرامٌ، والخيانةُ والكذبُ وأشباهُهُ حرامٌ. ليسَ بينَ البرِّ والفاجرِ في هذا خلافٌ، فأهلُ السنَّة وأهلُ البدَعِ في هذا سواءٌ ليسَ بينهم اختلافٌ. فمَنْ علِمَ هذا وعملَ به لَمْ يضرَّه ما جهلَ به من وراءِ ذلكَ إنْ شاءَ اللهُ.

فالزموا ذلك ولا تجاوزوه. وإن سُئلتُمْ عن شيءٍ منْ وراءِ ذلكَ، فقولُوا: آمنَّا بالقرآنِ وبما فيه، كلٌّ من عندِ ربِّنا واصمتُوا واخسأوا ولا تُجيبوا ولا تخُوضُوا فيه. ثمَّ إنْ خُضتم فيه وتعمَّقتمْ فيه لمْ تسلَمُوا الفتنةَ أبداً، إلاَّ ما شاءَ اللهُ. فاقبلُوا النَّصيحةَ ولا تجاوزوه ولا تخُوضوا فيه، فاشتغلوا بتعليمِ ما أوجبَ اللهُ عليكُمْ منْ أمرِ دينكُم، واشتغلُوا في تعلُّمِ حُدودِ الدِّينِ فهوَ خيرٌ لكُم فإنَّكم إذا تبحَّرتُمْ في العلمِ لا يخفى عليكُمْ إن شاءَ اللهُ. مخطئٌ مَنْ خالفَ العلمَ الَّذي في أيديكُمْ وبصرتُمُ الأمرَ من غيرِ ترك الأدبِ، لكنْ إذا تعمَّدتُمُ النَّظرَ في الاختلاط دونَ التبحُّرِ في العلمِ ومُجالسةِ العلماءِ ومُذاكرتهم، لم يُؤمَنْ عليكُمْ أن تُلْوا بشيءٍ يَسبقُ إلى قُلوبكمْ منَ الفتنة. ولعلَّكم تتركُونَ الحقَّ بعدَ ذلك، وتأبى قلوبُكُم من قبولِ الحقِّ.

وعلامةُ البصيرِ بالسُّنَّة، تحذيرُهُ منَ الخوضِ في البدَعِ، فالحذرَ فقدْ حُذِّرتُم. واقبلُوا النَّصيحةَ ولا تكُونوا ممَّن قالَ اللهُ فيهم: ﴿ولكن لا تحبُّون الناصحين﴾ واعلمُوا أنَّ الشيطانَ لا يزالُ يجري على النَّظرِ في اختلافِ الأمَّة لمعرفةِ الحقِّ بزعمِه. عصمَنا اللهُ وإياكُمْ منَ الهوى.

يا أخي عليكَ برعاية الجوارح والقلب والتثبُّت في الأحوال كلّها. لا تبدأ بقول ولا فعل، ولا تضمرْ شيئاً إلاّ بنظر وتدبير، فإنْ كانَ محموداً عندَ الله فبادرْ بفعله، وإنْ كانَ مذموماً فجانبْهُ. ما خفيَ عليكَ معرفتُهُ قفْ عندَهُ حتّى يأتيَ اللهُ بعلمه وبيانه. وإن كانَ حزنُكَ بمصائب الدُّنيا أكثرَ من مصائب الدِّين فإنّا لله وإنّا إليه راجعونَ.

يا أخي فاسمعْ منّي كلاماً، فقدْ بلغَنا أنّ رسولَ الله صلّى اللهُ عليه [وآله] وسلّمَ قالَ: «إنّ منَ العلم علماً مكنوناً لا يعلمُهُ إلاّ العلماءُ بالله، فإذا نطقُوا به لمْ يجهلْهُ إلاّ أهلُ العزّة بالله». فاسمعْ بأذن واعية وقلب حاضر أنّ التفاضُلَ بينَ النّاس عندَ الله بالعلم والعمل، وحسن النّيّة لا رياءَ فيها. والعملُ قد يخالطُهُ الرِّياءُ.

يا أخي إذا رغبَ النّاسُ في فنون فاجعلِ الرَّغبةَ فيها أنتَ فيما أوجبَ اللهُ على العباد. وتقدّمْ أنتَ في تعلُّم حدود الدِّين ومعرفة الحلال والحرام والورع والإخلاص، فالتمسْ ذلكَ بمجهودكَ، فاشتغلْ بالعلوم الّتي يسْخَطُ اللهُ من تضْييعها. يا أخي إذا اكتسبْتَ الفعلَ فيها فإنّ أولياءَ الله بالفعل نالُوا.

يا أخي لا تفعلْ شيئاً إلاّ بالفعل فيه، ثم تستعيدُ باكتسابه أنْ تُطيعَ اللهَ فيما أوجبَ عليكَ، وتجنّبْ ما حُرّمَ عليكَ.

يا أخي إذا رأيتَ النّاسَ يبغضُونَ ما يُحبُّ اللهُ ويكرَهُونَ منافعَهُمْ في الآخرة، كنْ بخلافهمْ أنتَ. مثالُ ذلكَ: في الخمول وإقبال الدُّنيا، وصرفها.

بابٌ

يا أخي إذا أحْضَرَ النّاسُ في صلاتهم أبدانَهُمْ، فأحضِرْ أنتَ قلبَكَ في الصّلاة إنْ كنتَ مقتدياً بالصّحابة رضوانُ الله عليهم.

أما بلغك أنّ بعضَ التّابعينَ قيلَ لهُ: أما تجدُ وسوسةً في الصّلاة؟ فقال: أنا أجدُ ذلكَ، فقيلَ لهُ: ما الّذي تجدُ؟ قال: أجدُ ذكرَ الجنّة والنّار وكأنّي واقفٌ بين يدَيْ ربّي، فقالُوا له: إنّا نجدُ ذكرَ الدّنيا.....، فقالَ: لشَرٌّ آخرَ من السّماء إلى الأرضِ أحبّ إليّ...

وكانت الصّحابةُ في الصّلاة كالثّوب المُلقَى وكالخشبة اليابسة، متغيّرينَ لقيامهم بينَ يدي الله، لا يعرفونَ في الصّلاة مَن على يمينهمْ وشمالهمْ. وكانَ الصّحابةُ والتابعونَ إذا فاتتْ أحدَهم التكبيرةُ الأولى معَ الإمام، عزّوه لمصيبة ثلاثةَ أيام.

وكان بعضُهم يُصلّي في نخيلٍ لهُ فشُغل بالنّظر إليها فسَها في صلاته، فاستعظَمَ ذلكَ وقالَ: لقد أصابني في مالي هذا فتنةٌ، فجعلَ النّخيلَ والأرضَ صدقةً في سبيلِ الله، وقد بلغَ ثمنُهُ ثمانياً وخمسينَ ألفاً.

يا أخي إذا صامَ النّاسُ عنِ الطّعام؛ فصُم أنتَ مع الصّوْم، عن قولِ الزّورِ والكذبِ والغيبةِ والنميمةِ وكلّ الآثام.

بـابٌ

يا أخي إذا تطوّعَ النّاسُ بالصّومِ والصّلاةِ طلباً للثوابِ، فاجعلِ التّطوّعَ أنتَ لإكمال الصّلواتِ المفروضة.

يا أخي إذا عملَ النّاسُ أعمالَ البرّ للعلوّ في الدّرجات، فاجعلْ أنتَ أعمالَكَ لمحقِ السّيّئاتِ وَجلاً من عواقبها. يا أخي إذا عملَ النّاسُ أعمالَ البرّ مع التلوّث في السيئات، تطهّرْ أنتَ من السّيّئات بالإنابة عنها. إنّ أفضلَ العباداتِ أداءُ الفرائضِ واجتنابُ المحارم، فاجعلْ أكثرَ همّتك في اجتنابِ

المحارم. تقرّب إلى الله بالتّقوى، ﴿إنّ أكرمكم عند الله اتقاكم﴾، ﴿إنّما يتقبّل الله من المتقين﴾.

بـابٌ

يا أخي إذا أعلى النّاسُ دعاءَهُم فادعُ بالسرّ أنتَ فيما بينكَ وبينَ الله، لأنّ هذا أفضلُ من ذلكَ بسبعينَ ضعفاً. ثمّ إذا دعَوا وقلوبُهم ساهيةٌ، فادعُ أنتَ مع إحضارِ القلبِ.

يا أخي إذا تلا النّاسُ كتابَ الله للثواب، فاتل أنتَ بإرادة التدبُّر والاعتبار بأمثاله وعجائبه ووعده وأمره ونهيه وحلاله وحرامه، لأنْ تعملَ بحُدوده وفرائضه.

يا أخي لا تكنْ عاصياً لله، تلعنُ نفسَك حينَ تقرأُ القرآنَ فتقولُ: ﴿إنّ لعنة الله على الظالمين﴾ وأنتَ ظالمٌ، وأمثالُ ذلكَ. وكُنْ مطيعاً لأنّ مَن أطاعَ اللهَ فقدْ ذكرَ اللهَ، وإنْ قلّ صومُهُ وصلاتُهُ وقراءتُهُ القرآنَ، وقد عرفتَ العكسَ.

بـابٌ

يا أخي إذا بذلَ النّاسُ أموالَهُم وفيها حَرامٌ فبادرْ أنتَ بالتخلّص عن تبعاتِ العباد. تطهّرْ من كلّ حرامٍ قبلَ ورودكَ على الله.

يا أخي إذا بذلُوا شُبهات في طلب الأجر، فليكُن ما تُريدُ بذلكَ أن تطهُر من التخاليط في مكسبكَ، عسى بقيّةُ المال يطيبُ لكَ قليلاً. وكن وجلاً من عواقب الشّبهاتِ قبلَ يومِ الحساب.

يا أخي إذا طابَ المكسبُ زكا العملُ. يا أخي إذا بذلُوا حلالاً لهُمْ ليضاعفَ لَهُمْ الجزاءُ، فليكنْ ما تريدُ أنتَ بذلكَ أداءَ الحقوقِ الّتي تُحبُّ لله

لتفتديَ بذلكَ نفسَكَ. فكُن في صدقتكَ كرجل قتلَ رُجلاً فأرادَ أهلُ القتيلِ أنْ يقتلُوه فقالَ: أنا أفتدي لنفسي، فلمْ يزلْ يُعطي شيئاً بعد شيءٍ حتّى أنقذَ نفسَهُ منَ القتلِ.

كنْ منْ أهلِ البصائرِ، وكما ترجُو أن تُقبَلَ حسناتُكَ فكذلكَ كُنْ وجلاً أن لا تُقبلَ منكَ، أما سمعتَ قولَهُ تعالى: ﴿إنّما يتقبّل الله من المتّقين﴾، وقالَ بعضُ أهلِ الله: أفٌّ لدُنيا حلالُها حسابٌ وحرامُها عقابٌ.

يا أخي أكثرْ منَ النّوافلِ لإكمال الفرائضِ لأنّ اللهَ لا ينظرُ حقّكَ حتّى تنظرَ حقّهُ، فاقتدِ بالعلماءِ باللهِ تعالى.

يا أخي إذا شكرَ النّاسُ ربّهمْ بالألسُنِ في كلّ نعمةٍ منَ النّعمِ في الشُكرِ على حالها؛ فاشكرِ اللهَ على ما أنعمَ بهِ عليكَ منَ اللسانِ بكثرةِ التّلاوةِ والذّكرِ. فإذا عجزْتَ عنْ ذلكَ فاستحْيِ أنْ تخوضَ بلسانكَ في فُنونِ الآثامِ. فاشكرِ اللهَ علَى ما أنعمَ بهِ عليكَ منَ البَصَرِ بالنّظرِ إلى الخلْقِ بالاعتبارِ، فإنْ عجزْتَ عن ذلكَ فاستحْيِ أنْ تنظرَ إلى الحرامِ. فاشكرِ اللهَ على ما أنعمَ بهِ عليكَ منَ السّمعِ بالاستماعِ إلى القرآنِ والذّكرِ والمواعظِ الحسنةِ، وإلاّ فاستحْيِ منَ الاستماعِ إلى اللهوِ والأباطيلِ.

فاشكرُ اللهَ علَى ما أنعمَ بهِ عليكَ من اليدينِ ببسطها إلى الخيراتِ. فإن قصرْتَ عن ذلكَ فاستحْيِ أن تبسُطَ يدَكَ إلى الظُلمِ والأذَى.

فاشكرِ اللهَ على ما أنعمَ بهِ عليكَ منَ القدمينِ بالسّعي إلى الطّاعةِ، وإنْ قصرْتَ عن ذلكَ فاستحْيِ أن تسعَى بهما إلى الآثامِ.

فاشكرِ اللهَ على ما أنعمَ به عليكَ منَ الأقوات بأنْ تستعينَ بها على ما يجبُ، فإنْ قصرْتَ عنْ ذلكَ، لا تستعنْ بذلكَ على ما يضرُّ.

فاشكرِ اللهَ على ما أنعمَ به عليكَ منَ اللباسِ أن تُبلَى في رضوانه، فإن قصرْتَ عنْ ذلكَ فاستحْيِ أن تُبلَى في مكارهه.

فاشكرِ اللهَ على ما أنعمَ به عليكَ منَ الأموالِ أن تبذُلها في سبيلِ الله، فإنْ بخلْتَ فاستحْيِ أن تُنفقَ مواهبَهُ في مكارهه.

فاشكرِ الله على ما أنعَمَ به عليكَ منَ الإيمان أن تجاهدَ في رضوانه وتُبالغَ في طلبِ ما يُرضيه، فإن عجزْتَ فاستحْيِ أنْ تضيّعَ حدودَ الإيمان، لا تدنّسْهُ بالمعاصي.

فاشكرِ اللهَ على ما أنعَمَ به عليكَ منَ العلمِ أنْ تكسبَ به رضوانَهُ، فإن عجزْتَ فاستحْيِ أنْ تعدُوَ ما أوجبَ عليكَ إلى ما حرّمَ عليْكَ.

فاشكُرِ اللهَ على ما أنعَمَ به عليكَ منَ العقْلِ بالتّفكُرِ والتدبُّرِ واعتقادِ حُسنِ النيّةِ وكثرةِ الإشفاقِ وطُولِ الحُزنِ والإضمارِ على ما يُرضي اللهَ، وإلاّ فاستَحْيِ منْ إضمارِ كلِّ سوءٍ.

واشكُرهُ أيضاً بتعظيمه على حَسبِ ما علمْتَ منْ عظمَتِه، وإلاّ فاستَحْيِ أنْ تنصبَ إلى استهانةِ حقُوقِ الله.

خَفْ أن تكونَ بعدَ المعرفةِ والفَهمِ والعلمِ جاهلاً، ويعودَ العقلُ والعلمُ عليكَ وبالاً.

وهبَ اللهُ لنا القيامَ بحُدودِ الله وأنعمَ بالشُّكرِ عليها، إنَّهُ جَوادٌ كريمٌ.

بـــابٌ

يا أخي إذا رأيتَ النَّاسَ يُظهرونَ العلمَ طلباً للعُلوِّ، فكنْ أنتَ مُنقبضاً بمجهُودِكَ، وكنْ للشُّهرة مبغضاً، ولخُمول الذِّكرِ مُحباً، وبالوجد آنساً ومنَ المَلأ مُستوحشاً، وفي الخَلوة والصَّمت راغباً. فمتى أظهرتَ منَ العلمِ شَيئاً فليكنْ ما تُريدُ وجهَ الله. وتذكَّرهُ بقدرِ الحاجة إلى بيانه للمُريدينَ خشيةَ الحَرجِ منْ كَتْمِه.

يا أخي قدْ عرفتَ أنَّ علاَّمَ الغُيوبِ مطَّلعٌ على جَوَلانِ الضَّميرِ.

يا أخي إذا أظهرَ النَّاسُ أعمالَ البرِّ ليقتديَ بهم غيرُهُم لا تُظهرِ أنتَ عملَكَ لذلكَ فإنَّ الفتنةَ فيها عظيمٌ، والجهادَ فيها شديدٌ، إنَّما ذلكَ للخُلفاءِ وأئمَّةِ المُسلمينَ. أظهَرُوا قليلاً من كثيرِ أعمالِهم لتأديبِ الأُمَّةِ وإرشادِهم.

يا أخي لا تجعلْ نفسَكَ أهلاً للاقتداء، فالحَذَرَ الحَذَرَ.

بـــابٌ ذمِّ المَـــدحِ

يا أخي إذا رضيَ النَّاسُ بالمدحة لا ترضَ أنتَ بذلكَ. كنْ وجلاً للمدحةَ فإنَّ لها حلاوةً تسبقُ إلى القَلبِ، ولا يسلمُ منها إلاَّ القليلُ لأنَّ منَ النَّاسِ مَنْ يعملُ لله، لا يريدُ بعملِه سواهُ. ثمَّ إذا بدتْ فضائلُهُ وأُثني عليها وأُكرِمَ، أذاقَهُ الشَّيطانُ حَلاوةً.

يا أخي إنْ بُليتَ بحلاوةِ المدحة، اجتهدْ على نفيِ ذلكَ منَ القلبِ بالكراهةِ والوَجَلِ منَ المدحة.

يا أخي إنَّ الصَّحابةَ رضوانُ الله عليهمْ كانوا يكرهونَ المدحةَ ويغضبُونَ على المادحِ.

يا أخي لا تفرحْ بشيء من الدُّنيا، كيف تفرحُ بسجنِ المُؤمن. يا أخي لا يفرحُ المؤمنُ بها ولا يتنعَّم بها ولا يطمئنُّ إليها وإنَّما الدنيا دارُ همومٍ وغموم. ألمْ تعلمْ أنَّا نسلٌ من السماء، فسبانا إبليسُ بالخطيئة. فليسَ ينبغي لنا أن نفرحَ ولا ينبغي لنا إلاَّ البكاءُ والحزنُ. وما كنَّا إلاَّ في دارِ السَّبي حتَّى نرجعَ إلى الدَّارِ التي منها سُبينا.

يا أخي الَّذي أنعمَ عليكَ بمدحٍ هو المستوجبُ للثناء والمدحة لا أنتَ. كيفَ يستوجبُ المدحةَ من نعتُهُ الشَّجاعةُ على المعاصي والطُّغيانُ في الغنى، والكُفرانُ عندَ النَّعماء، والنِّسيانُ حينَ البلاء، والتَّقصيرُ في شُكرِ ذي الآلاء. تحسبُ أنَّكَ بالمدحةِ أهلٌ فيكلُكَ اللهُ إلى نفسكَ ويُزيلُ عنكَ النِّعمَ ويهتكُ عنكَ السُّتورَ ويُبدي الَّذي يعلَّمُ من فضائحكَ للعالَم.

بـــابٌ في المَذَمَّـة

يا أخي إذا كانَ النَّاسُ حَقدوا على الذَّمِّ، كنْ بخلافهمْ. جاهدْ نَفْسَكَ على الرِّضى بالمذمَّة وفيها كَراهةٌ ومَرارةٌ تَسبقُ إلى القلبِ لا يسلمُ منها إلاَّ القليلُ، فاستمعْ يا أخي ما كانَ من خبايا النُّفوسِ، هل تجدُ الغمَّ من المدحةِ كالمَذَمَّة؟ هلْ تجدُ الغضبَ على المادحِ كالذَّامِّ؟ هلْ مجالسةُ المادحِ أخفُّ على قلبكَ منَ النَّظرِ إلى الذَّامِّ؟ هل تحتملُ مؤونةَ الذَّامِّ وتقضي حوائجَهُ كما كُنتَ تفعلُ ذلكَ للمادحِ؟ هلْ هجرانُ المادحِ والذَّامِّ لديكَ سواءٌ؟ فهذا أو أشباهُهُ من خَفايا النُّفوسِ.

يا أخي لا تستكملُ حقيقةَ الإيمانِ حتَّى يكونَ مَن يذُمُّكَ ومَن يمدَحُكَ في الحقِّ عندكَ سواءٌ. وارضَ بالمدحةِ والذَّامِّ... وخُصَّهُ بالدُّعاء، فاقضِ حاجتَهُ إنْ كنتَ صادقاً.

واسمعْ يا أخي شيئاً آخرَ من خبايا النُّفوس أيضاً، إنْ قلتَ: إنما أغضبُ على الذامِّ لأنَّه عاصٍ؛ فانظرْ هل تغضبُ لربِّك كما تغضبُ لنفسكَ على مَن اغتابكَ وذمَّك؟ هل تغضبُ للَّه على نفسك إذا ذمَمْتَ عبادَ الله كما تغضبُ لنفسكَ إذا اغتابُوكَ وذمّوك؟ وهذا من خبايا النُّفوس.

يا أخي رأسُ التَّواضُعِ أن تكرَه أن تُذكَر بالبرِّ والتَّقوى.

يا أخي إنَّ النَّاسَ في المدحِ والذَّمِّ أصنافٌ؛ منهم مَنْ يتمنَّى المِدْحَةَ ويعملُ أعمالَ البرِّ حبّاً لها. فهذا هالكٌ، أو يتوبُ اللهُ عليه.

ومنهمُ مَنْ لا يريدُ المدحةَ لكنْ إذا ابتُلي بها سبقَ السِّرورُ إليه. فجاهدَ على نفسِه عن قلبِه، فهذا في طريقِ المجاهدة، يقعُ مرَّةً ويقومُ مرَّةً، يُرجَى لهُ الوصولُ وهوَ على خطر.

ومنهمُ مَن إذا ابتُلي بالمدحة لم يُسَرَّ بها لعلمه بضررِها غيرَ أنَّهُ لا يجدُ الكراهةَ في نفسِه والإغمامَ بها، فهوَ على خيرٍ إن شاءَ اللهُ وبقي عليه من الإخلاصِ بقايا.

ومنهمُ مَنْ إذا ابتُلي بالمدحةِ ساءَتْهُ وكرِهَها وعجزَ من الغضبِ على المادحِ، فهو على خيرٍ يُرجَى لهُ الوُصولُ إلى الصِّدق.

ومنهم مَن إذا ابتُلي بالمدحةِ غضبَ منها ويُصيبُهُ الوَجدُ على المادحِ، فهذا بابُ المدحة على سبيلِ الهُدى، وبقي عليه بالمذمَّة بقايا.

ثمَّ إنَّ النَّاسَ عندَ المذمَّة أصنافٌ: فمنهم مَن إذا ذُمَّ غضبَ على الذَّامِّ وحقدَ عليه والتمسَ الانتقامَ، فهذا متحيِّرٌ هالكٌ، أو يتوبُ اللهُ عليه.

ومنهمْ مَن إذا ابتُلي بالمذمَّةِ ينقبضُ ويتمسكُ عنْ مخالفةِ الذَّامِّ إظهاراً

للورَع تزيُّناً ورياءً، ونيرانُ المذمّة تشتعلُ في جوفه ويشمّ فضائحَ الذَّامّ وبوارَه، فهذا قريبٌ من الأول أو دونَه في المهالك.

ومنهم من إذا ابتُلي بالمذمّة يصبرُ ويتجرَّعُ مرارةَ المذمّة خشيةَ أن يُعابَ بأكبرَ منها، وبُغضُ الذَّامّ مستوطنٌ في قلبه.

ومنهم من ابتُلي بالمذمّة كرهها ووجدَ منها وجاهدَ بنفسه على الصَّبر رغبةً في الثَّواب ولا يحقدُ على من ذمَّه، غيرَ أنَّه يستغلُّ للذَّامّ له، فهذا في طريق المجاهدة، يقعُ مرةً ويقوم.

ومنهم من إذا ابتُلي بالمذمّة يسبقُ إليه الكراهةُ فيرجعُ ويتّعظُ ويعلمُ أنَّه مستوجبُها، غيرَ أنَّ حالَ الذَّامّ في قلبه بخلاف من لم يذمّه، فهذا على خَيرٍ بقيَ عليه من الصِّدق بقايا.

ومنهم من إذا ابتُلي بالمذمّة لم يكرهها لكنّه تواضعَ لها وخضعَ لها، وأجرَى الذَّامّ ومن لم يذُمّه بمنزلة واحدة، فهذا على المحبّة يُرجى له الوصولُ إلى الصِّدق.

ومنهم من يكونُ في قلبه الحَنَقُ والبغضاءُ على نفسه وإذا ابتُلي بالمذمّة رضيَها وعلمَ أنَّه من أهلها، وكانت المذمّةُ غنيمةً عندَه. كُنْ هكذا يا أخي إنْ كنتَ صادقاً.

وقد بلغَنا أنَّ الرياءَ بضعٌ وسبعونَ باباً، ورُوِيَ أنَّ الرياءَ أخفى من دبيب النَّملِ على الصَّفا، وعقلي يقصُرُ عن وَصْف دبيب النَّملِ على الصَّفا، فكيفَ ما هُوَ أخفى منه؟ ولكنْ ما وَصَفْنا كفايةٌ. وهبَ اللهُ لنا الصِّدقَ في جميعِ الأحوالِ فإنَّه جَوادٌ كَريمٌ.

بـــابٌ

يا أخي إذا تركَ النَّاسُ من الذُّنوب الظَّواهرَ فتفقَّدْ أنتَ ذنوبَ القلب فإنَّها مُهلكاتٌ؛ منها الأملُ والقُنوطُ واحتقارُ الذُّنوب وتأخيرُ التَّوبة والإصرارُ على المعاصي والرِّياءُ والعُجْبُ والتفاخُرُ وحبُّ الزِّينة في الدُّنيا والتَّكاثُرُ والتكبُّرُ والأنفةُ منَ المسكنة ومنْ كثير منْ أعمال الحلال، واحتقارُ النَّاس وتعظيمُ الأغنياء والتضرُّعُ لهم وتباعُدُ الفقراء والأنفةُ منهم، والحسدُ والحقدُ والشَّماتةُ والعداوةُ وسوءُ الظَّنِّ للخَلْق والتَّجسُّسُ والخيانةُ ومساعدةُ الهَوى ومخالفةُ الحَقِّ والرِّضى بالهَوى، والحبُّ والبُغضُ بالهَوى، والجفاءُ والقطيعةُ وقلَّة الرَّحمة والأمانيُّ والحرصُ والشَّرَهُ والطَّمعُ والطِّيرةُ والفَرحُ بإقبال الدُّنيا وطولُ الأملِ وخوفُ الفقرِ وقلَّةُ الثِّقة بضمان الله واحتقارُ النِّعم واستبطاءُ الله في العطيَّة والغفلةُ عنِ الله تعالى واحتقارُ مصائب الدِّينِ واستعظامُ مصائب الدُّنيا والحُزنُ على ما فاتَ منها وقلَّةُ الحياء منَ الله.

يا أخي لا يفتقرْ فؤادُك منْ نظر الله إليكَ. مَن لا يُبالي بنظر الجبَّار هلكَ. يا أخي جاهدْ على نفْس ما خالفَ رضوانَ مَنْ علمَ سرائرَكَ، فما عُصمتَ منهُ فاحمدَ اللهَ، وما بُليتَ لَهُ فبادرْ بالإعانة والانتقال وتضرَّعْ إلى الله في العصمة والعفَّة. يا أخي متى سَلِمْتَ منْ آفات القلب فقد نجوتَ منَ الله. تعوَّذْ بذات الله منَ الجُرأة على الله.

بـــابٌ

يا أخي إذا تقرَّبَ النَّاسُ إلى الله تعالى بأنواع البرِّ الظَّاهر كالصَّلاة والصَّوم والصَّدقة والذِّكر والتِّلاوة وغير ذلكَ، فاجعلْ أنتَ أعظمَ رغبتكَ في طاعة القُلوب الَّتي لا يطَّلعُ عليها الإنسانُ والملائكةُ ولا يعلمُها إلاَّ علاَّمُ

الغيوب، وأنّ القليلَ من أعمال القُلوب أكثرُ منَ الذِّكرِ الَّذي لا يكتبُهُ الحفَظةُ بسبعينَ ضعفاً. ألا فتقرّبْ إلى الله بطاعات القُلوب. تقرّبْ بتعظيم الرَّبِّ تباركَ وتعالى بحُبِّ صفاته وبُغضِ مَكارهه والرِّضى والغضَب، وبشدّة الحُبِّ لَهُ والحُبِّ فيه، وبمعرفة نعَمه على تَواتُرِ سيِّئاتنا، وبخوف زوال النِّعمِ وشدّة الحياء منَ التَّقصيرِ في الشُّكرِ، وبالوجلِ والإشفاق وعلى الإيمان، وبشدّة الخوف منه وحقيقة الرَّجاء فيه والسُّرور بذكره ومُناجاته والشَّوق إليه والرَّغبة في جواره، وبصدق اليقين والتوكّلِ عليه والثِّقة به والطُّمأنينة إليه والأُنس به والانقطاع إليه، والشُّكرِ على النَّعماء والصَّبرِ على الضَّرّاء والرِّضا بالقضاء، وبالوقارِ ولينِ الجانب والتَّواضُعِ والخُشوعِ والحُضور، وبالحلم والاحتمال وكظم الغيظ، وبسلامة ما في الصُّدور وإرادة الخيرِ للأمّة وكراهة الشَّرّ لهُم، وبالرَّأفة والرَّحمة والشَّفقة على المُسلمينَ، وبالجُود والكرم والفضلِ والإحسان وصدقِ الرَّجاء، وبغَناء النَّفسِ والقناعة والكفاف والرِّضا بالبُلغة واليأسِ من مالِ النَّاس، وبالذِّكرِ والتدبُّرِ والعبرة والتثبُّت والتأنّي واستكثارِ نعمة لديكَ واحتقارِ برِّك، والإزراء على نفسكَ واستعظامِ معاصيكَ والحُزنِ لتقصيرٍ في أُمورِ ربِّك، وبالتدبُّرِ بكتابه والإضمارِ على القيامِ بحدُوده وإخلاصِ الأعمالِ لَهُ، ومجاهدة الشَّيطانِ عنْ دينك ومخالفة الهَوى في سريرتك وتفقُّدِ أحوالكَ والتَّقوى في كلِّ أُمورِكَ والنَّدمِ على ما أسلفتَ، وبأداء الأمانة إلى مَنْ خانكَ، وبالإحسانِ إلى من أساءَ إليكَ والإيثارِ على نفسك ولو كانَ بكَ خَصاصةٌ، وبإيثارِ الضَّعة على الرِّفعة وإيثارِ الذُّلِّ على العزِّ وإيثارِ الشِّدّة في الله على الرَّخاء وإيثارِ الفقرِ على الغِنَى، وبالفرحِ بمصائبِ الدُّنيا والسُّرورِ بنظرِ الله واختياره فيما ابتَلى، وبذكرِ المَوتِ

والبعث وطول الوقوف في الأهوال، وبذكر الحساب والصُّحف، وبماذا تُجيبُ عندَ السُّؤال، وبالعبُورِ على الصِّراط.

يا أخي إنَّ طاعةَ الجوارحِ في صلاحِ القُلوب. وفي فسادِ القُلوبِ تَضيعُ طاعةُ الجَوارحِ.

لا تُضيعْ يا أخي حظَّكَ منْ أعمالِ السَّرائرِ ففيها الخَيرُ والفضلُ العظيمُ، والوصفُ يَقْصُرُ عنْ قدرِها عندَ الله.

يا أخي ما آتاكَ اللهُ منها فاشكرْهُ وما قصَّرْتَ عنهُ تصرَّعْ، إلى الله بالحزنِ.

كلّ ما ذكرْنا، من فضلِ العلمِ والعقلِ وفضلِ النيَّةِ والإرادةِ.

انتهى ما لخَّصتُه من أسرارِ كلامِ الحارثِ قطبِ العارفينَ. وكلُّ مَنِ استعملَ ما استودعتُه في هذا التلخيصِ كانَ ولياً من أولياءِ الله.

والحمدُ لله الَّذي أنعمَ علينا بنعمةِ الإيمانِ والإسلامِ وهدانا بسيِّدنا ومولانا محمَّدٍ عليهِ منَ الله أفضلُ الصَّلاةِ وأزكى السَّلامِ.

نسألُ اللَّ الجوادَ الكريمَ أنْ يعصمَنا منَ الفتنِ ما ظهرَ منها وما بَطنَ، ويُبقينَا على طاعتِه، والعملَ بما يُقرِّبُ إليهِ إنَّه جوادٌ كريمٌ.

الحمدُ للهِ ربِّ العالمينَ

اللهمَّ وفِّقنا اتِّباعَ سنَّةِ نبيِّكَ محمَّدٍ صلَّى اللهُ عليهِ [وآلِه] وسلَّمَ بجاهِهِ عندَكَ، آمينَ.